التسامح بين المجتمعات الإسلامية

إعداد

الدكتور محمد أفضل رباني*

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد.

فإن الدين الإسلامي يدعو إلى الألفة والاجتماع، ويحث على التعاون والتآلف، والتعارف ويدني قلوب معتنقيه بعضها إلى بعض، ويربط بينهم بحقوق مشتركة من إفشاء السلام، وعيادة المريض، وزيارة الصاحب والقريب، فالأخوة الإيمانية بين أتباعه هي عنوان الوحدة وهي نظام الجماعة وهي سر الكلمة بين الأسرة الإسلامية الواحدة.

يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[1]، وقال سبحانه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]، وقال جل جلاله ﴿...وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

---

*- رئيس هيئة الثانوية العليا والثانوية بمدينة سركودها الباكستانية.

[1]- سورة الأنبياء آية ٩٢.

[2]- سورة الحجرات آية ١٠.

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِه إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [1].

وورد في السنة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّه إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِه ثَلَاثَ مَرَّات بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ "[2]. **واللفظ لمسلم.**

وجاء في الصحيحين من حديث النُّعْمَان بْن بَشِير رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى "[3].

والنصوص في هذا المضمار كثيرة معلومة.

وبقدر ما حث الإسلام على الاجتماع واتحاد الكلمة، فقد حذر من الاختلاف ونفر من التنازع، واعتبر تفرق الكلمة مقدمة الفشل، وذهاب الريح المعنوية والقوة النفسية، وحلول الهلاك والبوار في الأمة، قال تعالى:

---

[1] - سورة آل عمران آية ١٠٣.

[2] - مسلم كتاب البر والصلة والآداب، والبخاري في كتابي الأدب، والنكاح، والترمذي في كتابي النكاح والبر والصلة، والنسائي في كتابي النكاح والبيوع، وأبو داود في كتابي الأدب، والبيوع، وابن ماجه في كتابي النكاح والتجارات، والإمام أحمد في مسنده، ومالك في كتابي البيوع والجامع.

[3] - صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب، والبخاري في كتاب الأدب.

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّه جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّه عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ..﴾ [1].

وأما الأحاديث فقد جاء في الصحيحين عن أَنَسُ بْنُ مَالِك ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ "[2] **واللفظ للبخاري.**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا "[3] **اللفظ للبخاري.**

فما عز الإسلام وما انتصر المسلمون إلا يوم كانوا يدا واحدة، وصفا واحدا، والكلمة منهم موحدة، والاتجاهات متحددة، فبهذه العدة القوية وبذلك الاتحاد المتلاحم نهضوا من بلادهم القاحلة ونفروا من جزيرتهم الجرداء لنشر دين الله تعالى، وإعلاء كلمته، وهداية البشر وإرشاد الضالين.

فنشروا دين الله سبحانه تعالى، وأخرجوا البشرية من عبادة الأوثان إلى عباد الرحمن، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الطغيان إلى عدل الإسلام وسماحته، ومن ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

---

[1] - سورة آل عمران آية ١٠٣.

[2] -البخاري في كتاب الأدب، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، والترمذي في كتاب الصلة، وأبو داود في كتاب الأدب، وأحمد في مسنده، ومالك في الجامع.

[3] -البخاري في كتاب الأدب، ومسلم في كتابي النكاح، والبر والصلة والآداب، والترمذي في كتاب البر والصلة، والنسائي وأبي داود في كتاب النكاح، وابن ماجه في كتابي النكاح والتجارات، وأحمد في مسنده، ومالك في كتابي النكاح والجامع، والدارمي في كتاب النكاح.

وما زالت جيوش التوحيد تعبر شرق الدنيا وغربها فاتحة القلوب قبل فتحها البلدان، وناشرة العدالة والمساواة في أرض الله الواسعة حتى أصبحت أغلب المعمورة من الأرض تدين بالإسلام، ورددوا "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

هذا وأما الخلاف الفقهي والاختلاف في الأحكام الشرعية فلا أعتقده أنه كان شرا بل إنما كان فيه خير كثير، فقد أثرت الشريعة الإسلامية وجعل لكل حادثة حكما مستنبطا.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة :

"وإذا كان الافتراق حول العقائد في جملته شرا، فإنه يجب أن تقرر أن الاختلاف الفقهي في غير ما جاء به نص من الكتاب والسنة، لم يكن شرا بل كان دراسة عميقة لمعاني الكتاب والسنة، وما يستنبط منهما من أقيسة، فلم يكن افتراقا بل كان خلافا في النظر، وكان يستعين كل فقيه بأحسن ما وصل إليه الفقيه الآخر، ويوافقه أو يخالفه" [1].

وكان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يسره اختلاف الصحابة في الفروع، ويقول:

" ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لا يختلفون لأنه لو كان قولا واحدا لكان الناس في ضيق، وأنهم كانوا أئمة يقتدي بهم، فلو أخذ رجل بقول أحد لكان سنة" [2].

وقد كان الخلاف موجودا زمن الصحابة ثم زمن التابعين، ثم من بعدهم من الأئمة، وكل يذهب إلى ما يؤديه إليه اجتهاده، وبحثه، ولم يعب أحد منهم على أحد، ولم يخطئ أحد منهم، بل إن الاجتهاد في المسائل العلمية وجد بين الصحابة

---

[1] – تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة صفحة ١١ نقلا عن الاعتصام للشاطبي ٣/١١.
[2] – مقدمة كتاب تاريخ المذاهب الإسلامية.

والنبي ﷺ حتى بين أظهرهم فقد قال ﷺ "لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة" [1].

فبعض الصحابة اجتهدوا وصلوا في الطريق، وعللوا فعلهم بقولهم إن النبي ﷺ لم يرد تأخير الصلاة عن وقتها، وإنما أراد الحث على السرعة في النفير إلى بنى قريظة، وبعضهم تمسك بظاهر النص، فلم يصل العصر إلا بعد الغروب في بني قريظة، فلم يعب أحد على أحد، ولم يخطئ بعضهم بعضا، والنبي ﷺ أقرهم على اجتهادهم واختلافهم في فهم النص، وهناك قضايا كثيرة مشابهة من هذا النوع.

أنظروا ماذا فعل الصحابي سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين كان في الحج مع سيدنا عثمان بن عفان يتم الصلوة، يصلى أربع ركعات، والسنة أن يصلى المصلى في منى ركعتين قصدا لكل رباعية، عثمان رأى أن يصلى أربع ركعات لتأويل شرعي تأوله، مع ذلك ابن مسعود كان يقول:

"سنة المصطفى ﷺ أن يصلى أن يصلى في منى ركعتين لا غير لكل صلاة رباعية، قيل له يا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه تقول هذا وأنت تصلى مع عثمان بن عفان أربع ركعات لماذا؟. قال: يا هذا الخلاف شر، الخلاف شر، الخلاف شر" [2].

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالة سماها "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" ذكر فيها معظم أسباب اختلاف الأئمة والعلماء في المسائل الفرعية، وأنها أمور طبيعية يقتضيها اختلاف الأفهام، وكيفية تصور النصوص واختلاف وجهات

---

[1] – سيرة ابن هشام ٢٥٢/٣.

[2] –الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن لمعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

النظر في فهمها وتفرق الأمة وتباعد أقطارهم، وكون كل طائفة عندها من النصوص ما ليس عند الأخرى، وغير ذلك من أسباب الاختلاف، إلا أن كل هذا لم يسبب بينهم عداوة ولا شحناء ولا عصبية، ولا بغضا، بل هم أمة واحدة، تجمعهم أخوة الإيمان وصلة الدين، ونسب العلم".

وقال رحمه الله:

" يجب على المسلمين بعد موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ موالاة المؤمنين، خصوصا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدي بها في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم، ودرايتهم، وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته، فإنهم متفقون على وجوب اتباع الرسول ﷺ فإذا وجد لواحد منهم قول، قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه".

وجميع الأعذار ثلاثة أصناف:

- أولها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله .
- ثانيها: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.
- ثالثها: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ [1].

وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب تفصيلية عديدة لا يسعها هذا المقام التطرق إليها، مما لا بد من فهمها لكل من يتولى أمر اختلاف الفقهاء، ولكل من يتصدى لهذه القضايا الفقهية.

أيا ما كان فإن هناك أمثلة رائعة ونماذج دالة على موقف الفقهاء في أدبهم العلمي الرفيع في احترام بعضهم لآراء بعض، ذلك الاحترام الذي لم يمنعهم من مناقشة الآخرين ومناظرتهم في آرائهم.

---

[1] - مجلة المجمع الفقهي نصف سنوية، الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، العدد الثاني ١٤٠٨هـ، صفحة ٥٦ و ٥٧.

ولا يخفى على أحد موقف جمهور الأمة من أسلوب إمام الظاهرية ابن حزم الظاهري مع الاعتراف بسعة علمه وسعة اطلاعه.

وسأكتفي هنا برسالة متبادلة بين إمام دار الهجرة مالك بن أنس، والإمام الليث بن سعد، فقيه مصر في مسائل علمية تشهد لكل من الطرفين بعلو رتبته في الأدب، والخلق مع الاتفاق على علو مكانتهما العلمية، علما بأن هذه الرسالة في فضل علم أهل المدينة وترجيحه على علم غيرهم، واقتداء السلف بهم، وهذا هو مخلص نص الرسالة.

من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد.

عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا وإياك من كل مكروه، إعلم رحمك الله، أنه بلغني أنك تقضي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا، وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إليك، واعتمادهم على ما جاءهم منك حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة، فإن الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن الكريم، وأحل الحلال، وحرم الحرام...إلى أن كتب، فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك به لنفسك، واعلم إني أرجو أن لا يكون دعائي ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده، والنظر لك والضن بك، وفقنا الله وإياك بطاعته وطاعة رسوله في كل أمر، وعلى كل حال، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

رسالة الليث في الرد على رسالة الإمام مالك بن أنس

سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، عافانا الله وإياك، واحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة.

قد بلغني كتابك تذكر فيه من إصلاح حالكم الذي يسرني فأدام الله ذلك لكم، وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه.

وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك، مع استئناسي بمكانك، إن ناءت الدار فهذه منزلتك عندي، ورأي فيك فاستيقنه ولا تترك الكتاب إلى بخبرك وحال ولدك وأهلك، وحاجة إن كنت لك أو لا حد يوصل بك فإنه أسر بذلك، كتبت إليك ونحن صالحون معافون، والحمد لله، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا، والسلام عليكم ورحمة الله[1].

وأخيرا لا آخرا ذكر المحدث الكبير الخطيب التبريزي الشافعي رحمه الله صاحب كتاب "مشكوة المصابيح" عن الإمام أبي حنيفة النعماني رحمه الله، إنه كان عالما عاملا، ورعا زاهدا، عابدا إماما في علوم الشريعة، والغرض بإيراد ذكره في هذا الكتاب (الإكمال)، وإن لم نرو عنه حديثا في المشكوة للتبرك به ولعلو مرتبته و وفور علمه [2].

وفيه أيضا، وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله:

" من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة".

الاقتراحات:

فيجب علينا:

١- أن نجعل القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم نصب أعيننا، ونستنبط منهما حلول المسائل والمشاكل، ويتبع كل

---

[1]- دراسات في الاختلافات الفقهية للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني حلب بالجمهورية العربية السورية، ص ١١٩ إلى ١٣٤ (مخلصا غاية التخليص)، نقلا عن نماذج من رسائل الأئمة وأدبهم العلمي، رسالة خطية للشيخ عبد الفتاح أبو غدة نقلا عن أعلام الموقعين ٣/٩٤، ١٠٠ للإمام ابن القيم الجوزية.

[2]-الإكمال في أسماء الرجال لصاحب مشكوة المصابيح ص ٦٢٥، طبع أصح المطابع الباكستانية بكراتشي.

شخص ويعمل حسب فقهه في المسائل الفرعية، دون أن يتعرض لفقه آخر بالطعن والرد.

٢- ولا تشمئز قلوبنا في اقتداء بمن بيننا وبينه اختلاف فقهي إن اتفق لنا.

٣- لا بد من توحيد المناهج الدراسية والمقررات في المدارس لمختلف المسالك الفقهية وليكن التركيز على أمور مشتركة.

٤- عدم تكفير غيرنا مهما كان الاختلاف الفقهي بيننا وبينه وأيا كان مشربه.

٥- عقد مؤتمرات مثل هذا حينا بعد حين.

٦- مطالعة الكتب والأدب الديني الصادر عن أقلام علماء مختلف المناهل بعضهم لبعض.

٧- الاعتناء بالعلوم الحديثة والتقنية والاستفادة القصوى.

في ختام هذه الكلمة لا يفوتني إلا أن أتوجه بالشكر إلى مدير مركز الشيخ زايد الإسلامي بجامعة كراتشي وإلى سائر الإخوة الأفاضل في جهاز المركز على جهودهم الدءوبة لعقد هذا المؤتمر الإسلامي الهام، وتسخير كل الإمكانات المتاحة لإنجاحه، أتضرع إلى المولى سبحانه وتعالى أن يكلل جهوده بالتوفيق والنجاح.

كما أسأله سبحانه أن يرينا الحق حقا، ويرزقنا اتباعه، وأن يمن علينا بائتلاف وقوة في الحق وثبات عليه، وأن يجعلنا من الذين ينتهجون بمنهج أهل السنة والجماعة وبعقائدهم، لا نفرق بين شيء مما قالوه أو وضعوه أو استدلوا عليه بالأدلة الشرعية.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وسار على دربه إلى يوم الدين، آمين يا رب العالمين.